مجلة الأسرة والمجتمع
مجلة دولية محكمة نصف سنوية
تصدر بثلاث لغات
الترقيم الدولي: ISSN:2392-5337
FAMILY AND SOCIETY JOURNAL
International Biannual Journal
refereed Issued in three languages
الترقيم الإلكتروني: EISSN: 2602-6716
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/236

| المجلد: 11/ العدد: 02 / 2023 | تاريخ إرسال المقال: 08/ 09/ 2023 | تاريخ القبول: 11 / 12/ 2023 | تاريخ النشر: 31/ 12/ 2023 | الصفحة: 146– 165 |
|---|---|---|---|---|

# خصائص وعقبات التفكير العلمي حول المجتمع

# Characteristics and obstacles of Scientific thinking about Society

| حسين آيت عيسي | المركز الجامعي مرسلي عبد الله، (تيبازة) | aitaissi.hocine@cutipaza.dz |
|---|---|---|

**ملخص:**

من أجل الانتقال من المعرفة العامية إلى المعرفة العلمية، يكتسي توظيف منهجية التفكير والبحث العلمي أهمية حاسمة في حقل علم الاجتماع، وذلك بالنظر إلى أن الباحث السوسيولوجي يتعرض إلى خطر مضاعف لتأثير عقبات التفكير العلمي ويجد صعوبة أشد للالتزام بالحياد والموضوعية. فهو ينتمي إلى المجتمع، وتنبع شخصيته وثقافته وخبراته الأولية من بيئته الاجتماعية كما أن القضايا المثارة للنقاش حول الأسرة والمرأة ودين والثقافة والتربية، وغيرها، هي الأكثر ارتباطا بالتمثلات والقيم الدينية والأخلاقية، وهي بؤرة صراع أيديولوجي شديد الذاتية والتعصب. هذا ما يستدعي تعزيز مساهمة علماء الاجتماع لتغليب الرؤية العلمية والموضوعية. نحاول من خلال هذا المقال تحليل العلاقة بين خصائص وعقبات التفكير العلمي في مجال السوسيولوجيا، انطلاقا من واقع ومشكلات الممارسة السوسيولوجية في المجتمع الجزائري.

الكلمات المفتاحية: المجتمع، التفكير العلمي، علم الاجتماع، خصائص، عقبات.

| عنوان المقال: خصائص وعقبات التفكير العلمي حول المجتمع | اسم ولقب المؤلف: حسين آيت عيسي | المجلد: 11 / العدد:02 / 2023 | الصفحة: 146– 165 |
|---|---|---|---|

**Abstract:**

**In order to move from colloquial knowledge to scientific knowledge, employing the methodology of scientific thinking and research is of crucial importance in the field of sociology, given that the sociological researcher is exposed to double the risk of the influence of obstacles to scientific thinking and finds it more difficult to adhere to neutrality and objectivity. He belongs to society, and his personality, culture, and primary experiences stem from his social environment. Likewise, the issues raised for discussion about family, women, religion, culture, education, and others are most closely linked to religious and moral representations and values, and they are the focus of an ideological conflict of extreme subjectivity and fanaticism. This calls for strengthening the contribution of social scientists to give priority to the scientific and objective vision. Through this article, we attempt to analyze the relationship between the characteristics and obstacles of scientific thinking in the field of sociology, based on the reality and problems of sociological practice in Algerian society.**

**Keywords: Society, Scientific thinking, Sociology, Characteristics, Obstacles.**

## مقدمة:

إنه لمن الصعب جدا الخوض في قضايا المجتمع، خاصة الأسرة والتربية، من منظور علمي بحت، أي وفق منطق تفكير عقلاني وموضوعي ومحايد. فهي قضايا، بالإضافة إلى تعقيدها وحساسيتها، تحمل في طياتها تراكمات عقود من السجال والجدل والمواقف القيمية والأخلاقية والخلفيات الدينية والأيديولوجية، وكذا الخبرات الذاتية للباحث والمبحوث على حد سواء. ولقد لاحظنا في أغلبية النقاشات، بما في ذلك الأكاديمية، المتعلقة بالشأن الاجتماعي غلبة الطرح الأيديولوجي في كثير من الأحيان. الذي يعبر بطبيعته عن قناعات مسبقة وأحكام قيمية لا عن حقائق موضوعية، لكن الإشكال يكمن في قدرة كل الأطراف على تغليف ما هو ذاتي بسترة تبدو علمية. وهو الشأن بالنسبة لقضايا الأسرة والمرأة بوجه خاص، ضمن مجتمعات تعيش مخاضا ومرحلة انتقالية بين نموذج مجتمعي تقليدي ونموذج عصري، لم يتمكن أي منهما بعد من حسم النزاع لصالحه، أو بلورة توليفة متكاملة، بديلة لهما معا.

وحينما نطالع ما ينشر على مواقع التواصل الاجتماعي من مواضيع ذات الصلة بالمؤسسات والروابط الاجتماعية، وبخاصة تلك المتعلقة بالأسرة والعلاقة بين المرأة والرجل، كالحب والزواج والسلطة والعمل والعنف والمساواة والحرية، نلاحظ أولا أنه ثمة اهتمام كبير بتلك القضايا، وأنه ثمة حالة من الحيرة والسجال والتوتر

والتنفيس أيضا، يظهر من خلال مؤشرات الأسلوب الموظف والأوصاف والعنف اللفظي والتنمر والاستهزاء والاتهام والتشكيك المتبادل. وأنه ثمة بالفعل حاجز بين عالمي الرجال والنساء يتشكل من مجمل الأفكار والأحكام والخبرات المسبقة.

إن ما تقدم يبرر ويستدعي تكثيف مساهمة علماء الاجتماع، لتغليب الرؤية العلمية والموضوعية. فالمؤسسات الأسرية والتربوية مهمة وحساسة في آن واحد نظر لأهمية مكانتها ووظائفها الاجتماعية. كما أن قضاياها تشكل بؤرة لنقاشات مفتوحة على كل المخاطر والمغالطات. غير أن عالم الاجتماع لا ينبغي أن يكتفي بدراسة الظواهر الاجتماعية في راهنيتها، بالإضافة إلى ضرورة وضع هذه الظواهر ضمن بوتقة التاريخ وسياق التغير الاجتماعي ووفق مبدأ الكل المتضامن، فإنه يجدر به أيضا إدراكها في ضوء رؤية استشرافية لما يمكن أو يحتمل أن تؤول إليه في المستقبل.

فما هي الخصائص النموذجية للتفكير السوسيولوجي المطبق على الواقع والظواهر الاجتماعية؟، وما هي العوامل، أو العقبات، التي قد تحول دون تمكن أو ارتقاء المساهمة السوسيولوجية إلى هذا الأفق العلمي الكفيل بتقديم رؤية بديلة عن التصورات العامية والمقاربات الأيديولوجية؟، هذا المقال يقدم محاولة لإجابة أولية على هذين التساؤلين، انطلاقا من تحديد مفهوم وأهمية التفكير السوسيولوجي، وكذا جدوى تطبيقه على قضايا الأسرة والمرأة في المجتمع الجزائري بوجه خاص.

## أولا: المنهج العلمي سبيل المعرفة العلمية:

إن أهمية التفكير العلمي حول القضايا الاجتماعية تجد مبرراتها في طبيعة المجتمع الإنساني وحدود علم الاجتماع ذاته، يقول (فريدريك معتوق) "إن مهمة تفسير الظواهر الاجتماعية ليست سهلة بتاتا... فالمادة يمكن ضبطها في قوانين ونظريات أكثر مما هو عليه واقع حياة البشر، لذلك لم نتوصل بعد إلى نظرية اجتماعية موحدة"(**معتوق، فردريك (1985)، ص40**). إن هذا التعقيد المضاعف الذي تتسم به دراسة المجتمع هو ما يشدد من ضرورة الالتزام بالضوابط العلمية على مستوى التفكير والبحث والخطاب السوسيولوجي.

### 1– طبيعة المجتمع وعلم الاجتماع:

ثمة خصائص عديدة تميز موضوع الدراسة في علوم الإنسان والمجتمع ككل، مقارنة بعلوم المادة والطبيعة، حيث الكائن البشري له وعي بوجوده عكس المادة الحيوان النبات، فهو يتفاعل مع البيئة والظواهر المحيطة من خلال عملية تأويلية معقدة، بحيث يعدل ردود أفعاله وفقا لذلك. كما أن الباحث في العلوم

الاجتماعية هو من نفس طبيعة المبحوث، مما يعرضـــه لخطر تدخل الأحكام والتجارب الذاتية، فالباحث يتأثر ويؤثر في المبحوث. أضف إلى ذلك أن الأشخاص والمجتمعات ليسوا متطابقين ولو تشابهوا نسبيا، على خلاف ما هو الحال بالنســـبة للمعادن والنباتات والحيوانات التي تنتمي إلى نفس الفصـــيلة. ولذلك فليس في الإمكان تكرار نفس التجربة على نفس الأشـخاص إلا بتوفر شـروط معقدة وصـعبة التحقيق، بل يمكن القول بأن الأمر شـــبه مســـتحيل. وهذا ما يجعل القياس الكمي الدقيق صـــعب جدا ولا يعدو تقريبيا فقط، وفي أحيان كثيرة مسـتحيل التحقيق بالنسـبة لأغلبية قضـايا البحث، وهو بالتالي مغالط، فالظواهر الاجتماعية هي ظواهر نوعية، عكس ما هو الحال في علوم المادة والطبيعة (**أنجرس، موريس (2004)، ص 62 بتصرف**). ولذلك فإن منهجية البحث في العلوم الاجتماعية تختلف جوهريا عن منهجية البحث في العلوم الطبيعية، وينســـحب هذا الاختلاف على نسبية النتائج وإمكانية اكتشاف القوانين **(Morin Jean-Michel(2010), p16, 17) .**

فالعلوم الاجتماعية وهي تسـعى للتفسـير تصـطدم بعقبات تعيق الدراسـة الدقيقة للعلاقات السـببية بين الظواهر، منها تداخل الظواهر واستحالة العزل التام والكامل للمتغيرات المؤثرة والطفيلية، بينما يمكن تحقيق ذلك، ولو بصعوبة نسبية، خلال التصميم التجريبي في مجال علوم المادة والطبيعية. ولهذا السبب بالذات وضعت العلوم الاجتماعية نموذجا أو نمطا للتحليل الفهّمي، يركز على معنى الفعل لدى الفاعلين بينما هذا المعنى غير مستهدف أصلا في علوم المادة والطبيعية لأن الظواهر لا تنطوي على معنى ذاتي.

إن المنهج العلمي هو دليل الباحث لاكتشـــاف واختبار الحقائق العلمية، يتيح له تحقيق النموذج المثالي لخصـائص التفكير والبحث والكتابة العلمية، خاصـة منها الموضـوعية والدقة والتنظيم، فالمنهج هو "السـبيل الذي يوصـــل الباحث أو المفكر إلى الحقيقة أو ما يعتبر أنه الحقيقة"(**معتوق، فردريك (1985)، ص5**). وقد عرفته (مادلين غرافيتز)، بعد تحديد القاســـم المشـــترك بين جميع المناهج المتبعة في العلوم الاجتماعية، بأنه: "مجموعة العمليات الذهنية التي يحاول من خلالها علم (من العلوم) بلوغ الحقائق المنشـودة، مع إمكانية تبيانها والتأكد من صـحتها (**معتوق، فردريك (1985)، ص5**)، تسهيلا لضبط معنى هذا المفهوم الدقيق والأساسي.

فالنتائج التي تتمخض عن البحوث والدراســـات (العلمية) لا تعتبر علمية إلا إذا كان البحث الذي قاد إليها علميا، ولا يكون البحث علميا إلا إذا اعتمد على المنهج أو المنهجية العلمية. فالبحث العلمي يســـعى للوصـول إلى نتائج علمية من خلال توظيف منهجية علمية، وعليه فإن هذه الأخيرة هي أسـاس البحث والمعرفة العلميين على حد سـواء. ولعل هذا هو المعنى المراد من المقولة الشـهيرة: "ظن العالم أصح من يقين الجاهل"، وأن منطق البحث العلمي يقوم على أساس قاعدة مفادها أن الخطأ المنهجي أفضل من الصواب العشوائي.

فعلمية النتائج البحثية رهينة بعلمية المنهج المستخدم ودقة تبرير وتطبيق الإجراءات المنهجية الموظفة، أما "إذا كانت المنهجية المستعملة في البحث محل جدل فان النتائج ستكون محل جدل هي الأخرى"(**أنجرس، موريس (2004)، ص 440**). وهذا الضابط ينطبق على ميدان العلوم الاجتماعية بصفة أشد لأنها نسبية جدا، حيث أن لجنة مناقشة أي دراسة علمية، مثلا، لا يمكنها التشكيك في القيمة العلمية لنتائجها، مهما كانت تبدو غير متوقعة، إلا من خلال فحص مدى سلامة بنائها المنهجي، فإذا كانت المنهجية المتبعة صحيحة كانت النتائج المتوصّل إليها مقبولة علميا وصحيحة نسبيا ولو كانت تبدوا مفاجئة أو غير مستساغة، أما إذا كانت المنهجية المتبعة خاطئة ومرفوضة فإنه لا جدوى من قراءة النتائج أصلا.

إن شدة نسبية العلوم الاجتماعية تمثل مبررا إضافيا لمحورية المنهج العلمي، إذ تشكل المعيار الأكثر مصداقية على علمية المعارف ضمن هذا المجال البحثي المعقد والمتغير باستمرار. كما أن التقيد بالمنهج العلمي يتيح تحقيق النموذج المثالي لخصائص التفكير العلمي، خاصة ما تعلق بالدقة والتنظيم والموضوعية، إضافة إلى الفعالية طبعا. ولذلك يمكن القول أن المنهج العلمي هو أحد جناحي البحث العلمي، فبينما تجيب النظرية عن سؤال لماذا نبحث، فإن المنهج يجيب عن سؤال كيف نبحث، أي كيف ننجز البحث.

## 2– المجتمع من المعرفة العامية إلى المعرفة العلمية:

إن العلوم الاجتماعية ينبغي أن تكون مقبرة الأفكار والأحكام المسبقة والذاتية، أي أن تكون إسقالة الوعي الاجتماعي من المعرفة العامية إلى المعرفة العلمية. وهي إما أن تؤدي هذا الدور وإما أن تتحول إلى مجرد مجال امتداد واجترار للمعرفة العامية والخطاب الأيديولوجي والإعلامي والسياسي. وقد لاحظنا في عديد الملتقيات والندوات والمقالات، بل حتى الدراسات الأكاديمية، تدخل الاعتبارات الذاتية بشدة وحالة من الاستقطاب الأيديولوجي الذي يوظف الهالة العلمية لتمرير وتبرير أفكار مسبقة وجاهزة وشبه يقينية وأحكام قيمية وأخلاقية حول أكثر القضايا الأسرية حساسية، مثل الولاية في الزواج وعوامل وشروط الطلاق والخلق والحقوق والواجبات الزوجية والسلطة والعنف والمساواة والإجهاض وغيرها.

هذا الوضع يتطلب العودة إلى الأسس الأولية للتكوين الإبستيمولوجي والمنهجي للطلبة والباحثين في سوسيولوجيا الأسرة، ولعل أول ما يميز العلماء هو القطيعة واليقظة المعرفية حيال المعرفة العامية.

من حيث الاستخدام اللغوي، فثمة تقارب وتداخل بين كلمتي (علم) و(معرفة)، غير التدقيق يقودنا على تبيّن أن المعرفة أوسع واقل دقة من العلم، فالطفل يتعرف على أسماء الأشياء ثم ينتقل إلى العلم بخصائصها واستخداماتها ومخاطرها. فالعلاقة بين المعرفة والعلم هي العلاقة بين الكل والجزء، فكل علم معرفة وليست كل

معرفة علم. أما المعرفة العلمية فيمكن تعريفها باعتبارها: "نوع من المعرفة المتنامية باستمرار، الموجهة نحو دراسة الظواهر والتحقق منها"(**أنجرس، موريس (2004)، ص 462**)، والتي تخضع لقواعد وضوابط العلم.

إن المعرفة العلمية، عكس المعرفة العامية، تخضع لمنهج التفكير والبحث العلمي وتتقيد بالموضوعية والحياد، تستخدم جهاز مفاهيمي ونظري دقيق ومتخصص وفق رؤية كلية، كما تجمع بين طلب اليقين والاعتراف بالنسبية، قابلة لإعادة الإنتاج والتكذيب أو الفحص، تقوم على الاستدلال والبرهنة، تعتمد على الاستدلال المنطقي والبرهنة والحقائق المثبتة علميا، بالإضافة إلى التجريد والتنظير والتعميم المؤسس، تقوم أيضا على الخيال العلمي المنضبط، لكنها ترتكز أيضا على الملاحظات والمعطيات الواقعية. يقول (عبد الله محمد عبد الرحمن) "إن المعرفة العلمية تختلف عن أي معرفة أخرى من خلال وجود عناصر رئيسية تتميز بها، وهي: وجود ملاحظات منظمة ودقيقة، التركيز على الموضوعية، الاعتماد على القياس العلمي والتجربة، تفسير العلاقات المتداخلة عن طريق مبدأ السببية، الوصول إلى القوانين والاستنتاجات العامة" (**عبد الله محمد، عبد الرحمن (2006)، ص65**).

وينبغي التطرق إلى خصوصية العلاقة بين المعرفة العلمية والمعرفة العامية في العلوم الاجتماعية عامة وعلم الاجتماع بوجه الخصوص، حيث هناك فرق في المسألة بين علوم الإنسان أو المجتمع وعلوم المادة أو الطبيعة، حيث التداخل بين المعرفتين أكثر شدة وبالتالي تعقيدا في المعارف الاجتماعية منه في الطبيعية، فالقطيعة مع الأفكار المسبقة في العلوم الاجتماعية صعبة المنال مقارنة بالعلوم الطبيعية. ومن جهة أخرى يمكن للمعرفة العامية أن تكون موضوع بحث للمعرفة العلمية في العلوم الاجتماعية، كالتمثلات والاتجاهات والممارسات الاجتماعية. كما يمكن استثمار المعرفة العامية، كالتجربة الأسرية والتربوية والمهنية الشخصية الذاتية للباحث، للتعمق في تفسير وفهم الواقع والظواهر والمؤسسات الاجتماعية وكذا منطق الفاعلين، وهو ما يمكن أن نطق عليه تسمية: (الذاتية الموضوعية).

وهنا ننبه إلى ملاحظتين أساسيتين، الأولى أن الشخص العاميّ، في مقابل العالم، هو أيضا كل من ليس متخصصا في مجال معرفي معين، فالطبيب عاميّ في علم الاجتماع، وكذلك عالم الاجتماع عامي في المجال الطبي، وقس على ذلك، خاصة حينما يتعلق الأمر بالعلوم المتباعدة جدا من حيث طبيعة مواضيع الدراسة أو مناهج التفكير والبحث. أما الملاحظة الثانية فهي أن المعرفة العامية ليست بالضرورة خاطئة، تماما مثلما أن المعرفة العلمية ليست بالضرورة صحيحة. فمعيار التمييز ليس الخطأ والصواب وإنما هو الإنتاج المتخصص، طبعا من حيث كل من الشخص المنتج للمعرفة ومناهج إنتاجها، فالمعرفة العلمية هي المعرفة التي ينتجها العلماء المتخصصون وفق المنهجية العلمية.

لقد دعا الفيلسوف وعالم الاجتماع والاقتصادي الألماني (Max Weber 1864- 1920) إلى ضرورة التزام العلماء بالحياد القيمي، وأن ذلك الحياد لا يتحقق إلا بأن تبتعد العلوم الاجتماعية تماما عن كل فكرة إصلاح(**معتوق، فردريك (1985)، ص92**)، فالعلماء، بحسبه، ليسوا أنبياء ولا مصلحين. وهو يعقد في كتابه (العالم والسياسي) مقارنة بين منطقي هذين الفاعلين، باعتبارهما منطقين يخضعان، بحسبه، لمبدأين أخلاقيين مختلفين تماما بل متناقضين، فبينما يخضع الأول لمبدأ القناعة فقط Éthique de conviction، فإن الثاني لا يخضع سوى لمبدأ المسؤولية. Éthique de responsabilité

لكن معاصره، عالم الاجتماع الفرنسي (Emile Durkheim 1858-1917) ، كان له رأي آخر، "فحيادية دوركايم تختلف عن حيادية فيبر في أنها لا تعتبر أن في اعتماد الأحكام الأخلاقية أو الأفكار المسبقة بصفة عامة أي انتقاص من قيمة البحث [..]، على أن ينتهج الباحث هذا الموقف بشكل واعي، "ولم يخفي دوركايم طموحه في أن تشكل أبحاثه منطلقات لعمليات إصلاح اجتماعي" (**معتوق، فرديريك، (1985)، ص95**) . بل صرّح أن علم الاجتماع إذا لم يكن سيفيد في إصلاح المجتمع فإنه لا يستحق أن نمنحه ساعة من الوقت. ويحيلنا هذا الطرح، خاصة بالنسبة للقضايا الاجتماعية ذات الحساسية، المتعلقة بالدين والهوية واللغة والأسرة والتربية، إلى المهمة الصعبة والثقيلة التي يتحملها علماء الاجتماع، والمتمثلة في السعي إلى التوفيق بين الحياد والموضوعية والصرامة المنهجية من جهة وبين الضمير الأخلاقي والمسؤولية الاجتماعية من جهة ثانية.

## ثانيا: التفكير السوسيولوجي والروح العلمية إزاء القضايا الاجتماعية:

إذا كان التفكير هو "إعمال العقل في مسألة معينة"(**فؤاد، زكرياء (1978)، المقدمة**) فإن التفكير العلمي فهو نمط خاص من التفكير، يمكن تعريفه، اجتهاديا، بأنه نشاط ذهني متخصص أو محترف ونموذجي يهدف إلى انتاج أفكار علمية. يقول "باشلار" (Bachelard) : "لا بد لكل ثقافة علمية من البدء بجراحة فكرية وعاطفية، وتأتي بعد ذلك المهمة الأصعب: وضع الثقافة العلمية في تعبئة دائمة، وإبدال المعرفة المغلقة والجامدة بمعرفة منفتحة وناشطة"(**باشلار، غاستون (1982)، ص 17**).

### 1– خصائص التفكير السوسيولوجي:

إن خصائص التفكير السوسيولوجي تشكل في مجموعها النموذج المثالي للعقل العلمي المطبق على الحقل الاجتماعي ككل. فالتفكير السوسيولوجي هو تفكير علمي بالأساس، ثم هو إضافة إلى خصائص ومميزات التفكير العلمي يتسم بمنطق خاص يرتبط بنظريات ومبادئ مفاهيم علم الاجتماع، التي تطبع شخصية عالم الاجتماع بطابع خاص ومتميز.

## 1– 1. الموضوعية والحياد:

إن العلوم الاجتماعية من خلال التقيد بالحياد والموضوعية وتقليص تدخل التحيز الذاتية، يسعى إلى تحقيق هدف أساسي حدده فيلسوف العلم (Frege) في الوصول إلى "فهم الناس على اختلافهم لنفس الشيء بنفس الطريقة"(**جميل، عصام زكرياء (2012)، ص 310**). لكن بلوغ الحيادية المطلقة مسألة مستعصية، إلى حد الاستحالة في علم الاجتماع، فالحيادية أو الموضوعية النسبية هي الحد الأقصى الذي يمكن بلوغه (**معتوق، فردريك (1985)، ص101**). وقد تقدم عرض أسباب صعوبة تحقيق الموضوعية والحياد في دراسة القضايا الاجتماعية، وهي نفسها المبررات التي تؤكد الضرورة القصوى لتعزيز النزعة الموضوعية لدى علماء الاجتماع والوعي بالطرق الخفية التي تتسرب من خلالها تأثيرات النزعة الذاتية إلى منطق التفكير وعبر كل مراحل البحث. ولا شك أن جنس الباحث، رجل أو امرأة، وكذا الانتماء الأيديولوجي، محافظ أو حداثي، يتدخل بقوة في رؤية الواقع الاجتماعي، كما هو الحال بالنسبة لمسألة السلطة في الأسرة وكذا القيم الأخلاقية في المدرسة، وإذا لم يكن بالإمكان تحرير الباحث من شخصيته وهويته الاجتماعية فإن تقليص هذا التأثير لا بد أن يحظى بالاهتمام البالغ.

## 1– 2. نجاعة ودقة الجهاز النظري والمفاهيمي:

إن التفكير والبحث السوسيولوجي حول المجتمع يعتمد على إطار نظري وجهاز مفاهيمي دقيق ولغة علمية متميزة. الإطار والجهاز النظري والمفاهيمي الذي نقصده هو مجمل النظريات والمفاهيم السوسيولوجية والنماذج التحليلية والدراسات التأسيسية النواتية، المرجعية. وهي التي ينبغي أن يصدر عنها الباحث ويتبناها من أجل القيام بعملية بناء موضوع بحثه بناء إبستيمولوجيا وسوسيولوجيا. يقول أستاذ علم اجتماع والمنهجية (الطيب كنوش):"بدون علم الاجتماع لا جدوى من المنهجية، إذ لا يوجد ما هو تقني بحت في البحث السوسيولوجي".

فالنظريات والمفاهيم السوسيولوجية تمنح للبحث انبثاقه وروحه وعمقه ووجهته وأفقه. فهي للباحث والبحث منبع الدوافع والمحفزات الفكرية ذات الطبيعة العلمية، تفتّح ذهن الباحث لاكتشاف مواضيع جديرة بالبحث قد لا يراها غيره، وهي لرحلة البحث بمثابة البوصلة، تحدد معالما على أرضيات البحث حتى لا يتيه الباحث، وبهذا ترسم معمار بناء الموضوع. كما أن النظرية تعتبر بمثابة الجسر أو الإسقالة الذي تنقل الباحث من المستوى الاجتماعي إلى المستوى السوسيولوجي، أو من المعطى إلى المبني، خاصة حينما تسلّح الباحث بالقطيعة واليقظة المعرفيتين، حيال الذاتية والحس المشترك والأفكار المسبقة والأحكام القيمية ووهم الشفافية والرؤية الذرية التجزيئية لما هو بطبيعته كل معقد ومتضامن.

تظهر بصمة النظرية خلال بناء الإشكالية والنموذج التحليلي، حيث تضفي دلالة قوية وعميقة على التساؤلات والفرضيات والمفاهيم والمتغيرات والمؤشرات وتقنيات البحث، ثم تختفي نسبيا، حيث يطغى البعد المنهجي التقني، لكنها تعاود الظهور مرة أخرى وبقوة خلال التحليل أو التأويل السوسيولوجي للمعطيات والنتائج المتوصل إليها.

## 1– 3. التعقيد والتعمق:

يقول **"إدغار موران"** (**Edgard Morin**): "التعقيد ليس مفتاح العالم، بقدر ما هو التحدي الذي نواجهه بالضرورة، وليست مهمة التفكير المعقد تفادي أو إلغاء هذا التحدي، وإنما هي المساعدة على رفعه وأحيانا تجاوزه" **(, Edgar Morin (2005)،(p13** . فلا يمكن تناول قضايا الدين أو الأسرة أو التربية، المعقدة جدا والمثيرة والمتغيرة باستمرار، من خلال نمط تفكير تبسيطي أو نظرة ذرية. فمن شأن ذلك أن يشوه الواقع لا أن يكشف خباياه وأبعاده المتعددة والمتداخلة، بحيث يبقي الباحث على باب الحقيقة دون أن يلج إلى عمقها. غير أن مفهوم التعقيد من المفاهيم المعقدة بدوره، وهم مركب من عديد الأبعاد التي تتخلل كل خصائص التفكير العلمي وسمات الروح العلمية، خاصة منها الصرامة المنهجية والجمع بين التخصص والرؤية الكلية والجمع بين اليقين والنسبية.

إن "المنهج العلمي ينبغي أن يتبع منطقا صارما"، بتعبير باشلار (**لارامي، ألان (2009)، ص41**)، ومعنى ذلك أن العمل العلمي نشاط احترافي، يتطلب تكوين متخصص وتركيز ويقظة مستمرة والتزام بالمعايير والضوابط المتفق عليها في المجتمع العلمي. ينبغي أن يكون البحث والتفكير العلمي في مستوى تعقيد وعمق وتشعب الشأن الاجتماعي ومجمل القضايا المتداخلة والتي هي محمّلة بحجم كبير من المغالطات الناتجة عن الصراع والتوظيف الأيديولوجي.

## 1– 4. الروح النقدية والشك المنهجي:

إن العالم دائما متشكك، يتريث ويتحقق قبل أن يتبنى أي حكم أو موقف، فكل الأفكار والمعطيات مغلوطة حتى تثبت صحتها، وليس العكس. ذلك لأن "العقل العلمي يمنعنا من تكوين رأي حول قضايا لا نفهمها"(**باشلار، غاستون (1982)، ص 14**).

والنزعة النقدية هي نزعة سوسيولوجية بامتياز، فعلم الاجتماع هو علم نقدي، يسعى إلى كشف ما هو مخفي، والتحقق من اليقينيات الاجتماعية. فعالم الاجتماع يدرك أكثر من غيره أن التصورات والممارسات الاجتماعية وكذا الخطاب (العلمي) حول المجتمع إنما هو نتاج ثقافي واجتماعي وسياسي أيضا، مهما كان يبدو في الظاهر عليما وموضوعيا. إن ما يهم عالم الاجتماع هو الوصول إلى الحقيقة لا الدفاع عن وجهة نظر مسبقة،

وهذا ما يميزه عن غيره من المشتغلين بالقضايا الاجتماعية. بل عالم الاجتماع ينبغي أن يمارس هذا الموقف النقدي حيال ذاته وأفكاره وأعماله العلمية. إن العلم، بتعبير (باشلار)، هو المجال الوحيد الذي يجعلنا نحب ما نهدم (**أنجرس، موريس (2004)، ص 29، 30**).

## 1– 5. القطيعة واليقظة المعرفية:

إن التفكير والبحث في المجتمع، التي ننتمي إليه، يتطلب من الباحث التسلح بسلاح مزدوج، يتمثل في القطيعة واليقظة المعرفية. ولعل أفضل تعريف للقطيعة المعرفية هو ذلك الذي قدمه (فريدريك معتوق)، استنادا لأعمال (بيار بورديو)، فهي "عملية الابتعاد الواعي عن موضوع البحث بهدف الإلمام به بأقصى درجات الحياد والموضوعية"(**معتوق، فردريك (1985)، ص101**)، ويعرفها "بينوا غوتيي" (**Gautier, Benoît**)، بأنها تعني اتخاذ الباحث لمسافة ابتعاد من موضوع بحثه لتفادي اسقاط ما يدركه من الموضوع على حقيقة الواقع كله" **(Gautier, Benoît (1984) p523)**. هذا المفهوم نحته الفيلسوف (باشلار)، الذي دافع بقوة عن أطروحة مفادها أن العلم لا ينمو ويتقدم دائما عن طريق التراكم في حركة تصاعدية، وإنما عن طريق القطيعة والانفصال. فالفكر العلمي يتشكل ويستند في كل مرحلة على كتلة من المفاهيم لتوليد المعرفة العلمية، وبعد أن تصل هذه المفاهيم إلى حد الاستنفاذ تحدث أزمة لمسار نمائها، تفرض على العلماء إبداع مفاهيم وأدوات تفكير جديدة ومختلفة، تتيح تجاوز العقبات المعرفية، كالأحكام والأفكار المسبقة والذاتية والتضليل الإعلامي وغيرها. إنها فلسفة ترى أن لكل أطروحة معرفية فترة حياة محدودة، وتاريخ العلم هو في عمقه تاريخ الثورات العلمية، بتعبير (توماس كون)، أو هو تعديل مستمر لخطأ مستمر. ويمكن التمييز بين نوعين من القطيعة، القطيعة العامة، وهي تلك التي تتم على مستوى مسار تطور علم معين، والقطيعة الخاصة، وهي تلك التي تتم على مستوى مسار انجاز بحث محدد. أما اليقظة المعرفية لترافق الباحث طيلة مراحل البحث، بحيث تجعله متنبها لذاتيته ومميزا بين ما يجب أن يكون معياريا وما هو كائن موضوعيا.

## 1– 6. الجمع بين التخصص والرؤية الكلية:

إذا أخذنا الأسرة كمثال، فإنها لا تعدو نسقا فرعيا ضمن النسق الاجتماعي العام، وهي مؤسسة وبنية اجتماعية لا يمكن فصلها عن المؤسسات والبنى الاجتماعية الأخرى. وإذا كان الباحث مختصا في علم اجتماع الأسرة (العائلي)، فإنه لا ينبغي أن يتقوقع في إطارها الضيق، وإلا فإنه يوشك أن يصل إلى نتائج مبتورة عن سياقها الكلي وبالتالي نتائج مشوهة.

وذلك وجب أن يتماشى التخصص مع الرؤية الكلية، هذا التوفيق هو أحد الخصائص المميزة للتفكير العلمي، فالباحث يتخصص في مجال علمي محدد بسبب العجز عن الإلمام بالتراكم المعرفي الهائل، ولأجل تحقيق التعمق في فئة متجانسة من المواضيع أو الظواهر، لكن الواقع ليس مجزئ والظواهر الاجتماعية ليست مستقلة عن بعضها، فهي متداخلة ومتفاعلة بشدة، ولهذا يحتاج الباحث المتخصص إلى الإلمام بأقل تعمقا بعديد المجالات المعرفية ذات الارتباط الوثيق بمجال تخصصه، إنها مهمة صعبة لكنها ضرورية وليست مستحيلة، خاصة بفضل أسلوب ممارسة البحث العلمي المعاصر الجماعي والمؤسساتي، وهو ما يطلق عليه تسمية (علم الاجتماع الكلي). وبهذا يتفادى الباحث الوقوع في مغالطة (الشجرة التي تخفي الغابة)، هذا بالإضافة إلى ضرورة الجمع بين التراكمية والقطيعة في علاقته بتراكمات الدراسات السابقة، وكذا الجمع بين استهداف اليقين والتحلي بالنسبية بالنسبة لنتائج البحث.

## 2– الروح العلمية ولغة الخطاب السوسيولوجي:

لا يمكن تصور شخصية عالم الاجتماع بدون الروح العلمية، التي هي مجموع المواقف والاستعدادات والقيم الخاصة بالنشاط العلمي، والتي ينبغي أن يتميز بها كل باحث أو عالم. فالعلم ليس مجرد مجموعة من المعارف التي نحصلها بل هو أيضا نشاط منتج للمعرفة عن طريق التفكير والبحث العلميين، لكن في إطار التحلي والالتزام بالروح العلمية.

فهي ذلك النمط من الشخصية المقدسة للعلم والحقيقة والمتحلية بأعلى درجات الموضوعية والصرامة المنهجية ودقة التفكير وعمقه، ولعل المواقف الأكثر كشفا لهذه الروح هي رد الفعل عند الخطأ المعرفي أو عند المناقشة الجدلية، حيث يظهر الميل إلى الانتصار للحقيقة أو الانتصار للأنا.

تتميز الروح العلمية، بحسب (موريس أنجرس)، بستة استعدادات ذهنية متكاملة، هي الملاحظة الذكية والتساؤل المستمر والاستدلال المنطقي والعمل المنهجي والتفتح الذهني في التفكير والموضوعية في الحكم، ولكل واحد من هذه الاستعدادات دور في هذه اللحظة أو تلك من لحظات إجراء البحث العلمي. فإذا كانت الملاحظة تسمح بالتحقق من الافتراضات فان المسائلة هي التي تتيح افتكاك وبناء موضوع البحث أصلا. وإذا كان الاستدلال هو الأساس في صياغة مشكلة البحث فان المنهج يتضمن الإجراءات الضرورية والكافية لتنظيم مسار البحث وتكامل مكوناته، وإذا كان التفتح الذهني يسمح بالابتعاد عن الأفكار والأحكام المسبقة والنظرة العامية وكذا وهم الشفافية وأسر الملاحظة الأولية فان الموضوعية تضع حاجزا معنويا آخر وصمام أمان فكري أمام خطر

داخلي أخطر يتهدد القيمة العلمية للبحث ككل، إنه خطر الذاتية والتحيز، ذاتية الباحث وتحيزاته بكل أشكالها الظاهرة والخفية (**أنجرس، موريس (2004)، ص 30، 31**).

كما أن كل واحد من هذه الاستعدادات يحث على سلوكيات محددة لدى الباحث طيلة مراحل التفكير والبحث والكتابة، فروح الملاحظة مثلا تتغذى من الرغبة في المشاهدة والمعاينة ثم التعرف والتقييم وفق المقاييس المختارة، أما روح التساؤل فتميل إلى طرح الأسئلة عن الظواهر والوقائع والمعطيات التي قد تبدو عادية وغير متطلبة للبحث لدى الإنسان العادي، وذلك في إطار من الشك البناء والايجابي، وليس العالم إلا متشككا في كل ما يجري حوله.

أما الروح الاستدلالية فإنها قائمة على حب التفكير والتأمل التجريدي لبناء الواقع وتنسيق عناصره الأولية، فالعالم يجمع بين ملكة ورغبة في التنظير والربط بين الأحداث والمعطيات والملاحظات بما يتيح له استنطاق الجزئيات عن دلالات كلية تعمل في الخفاء، وتأتي الروح المنهجية فتنظم وترتب مسار انجاز العمل العلمي بأكثر دقة وتكامل ممكن، بالإضافة إلا ما في ذلك من اقتصاد للجهد والوقت، ولا يستغني العمل العلمي عن الذهن المتفتح الذي يوسع مدارك الباحث وينوع مجالات تنقيبه ويثري بذلك مقارباته بحيث يتيح له تجاوز ردود أفعاله المألوفة التي لا يؤدي تكرارها إلا إلى جمود البحث العلمي واجترار المحاولات السابقة، ما يحجب كل جديد وغير معتاد، وأخيرا فان الروح الموضوعية تتوق إلى تقديم عرض يتسم بأكبر قدر من الصدق والأمانة والحياد والتجرد(**أنجرس، موريس (2004)، ص 42**).

وبالإضافة إلى الروح العلمية فإن لغة الخطاب ضمن المجال العلمي تكتسي أهميتها وخطورتها باعتبارها وعاء نقل المعرفة العلمية وتلقيها، وهي وسيلة عرض العمل العلمي أيضا. فالمعرفة العلمية تتميز بلغة خاصة متميزة عن اللغة الأدبية، ناهيك عن اللغة العامية.

قد تبدو لغة العلم غامضة ومعقدة بمفرداتها ومصطلحاتها ومفاهيمها ومعادلاتها ورموزها واختصاراتها، لكن ذلك لا يعبر إلا عن الهوة الفارقة بين مختلف أنماط واستخدامات اللغة ذاتها. والأكيد أن هذا التعقيد لا ينبغي أن يكون مقصودا أو مفتعلا من طرف العلماء والباحثين، بل ينبغي عليهم التبسيط قدر المستطاع دون تشويه أو تمييع الدلالات والمعاني وبالتالي التنازل عن الصرامة المنهجية والوجاهة الإبستيمولوجية، تماما مثلما نبه إلى هذا المزلق (ألبرت أنشتاين) حين قال: "ينبغي تبسيط الأشياء لكن بدون مبالغة".

يمكن أن نوجز ونختصر خصائص لغة العلم في أنها لغة دقيقة ومباشرة وواضحة وموجزة ومحددة ومنمذجة، أي أنها تخضع لطريقة شبه موحدة من الناحية الشكلية. ينبغي، كما أرشدنا إلى ذلك أستاذ المنهجية المعمقة (**عبد**

**الرحمن بوزيدة)**، "الحرص ضمن الخطاب العلمي على أن نعبر عن أفكارنا بأقل عدد من الوسائط الكلامية"، ودون أن يكون في ذلك أي مانع من مراعاة نسبية لجمالية التعبير، وقد تعلمنا لدى أستاذنا القدير **(مغربي عبد الغني – رحمه الله)** أن "الشكل والمحتوى يتماشيان اليد في اليد ضمن الخطاب العلمي".

وقد كتب (موريس أنجرس) واصفا لغة العلم، فقال أنها " تتميز بـ (أحادية معنى اللفظ)، فكل لفظ مستخدم ينبغي أن لا يكون له أكثر من معنى واحد، بحيث يؤول من طرف الجميع بكيفية واحدة"(**أنجرس، موريس (2004)، ص 52، 53**)، بالإضافة إلى ما يرتبط بهذه الخاصية من ميزة (دقة اللفظ)، بحيث "يسعى الباحث إلى تحديد ما يقصده من كل لفظ أساسي ضمن بحثه أو خطابه العلمي"(**أنجرس، موريس (2004)، ص 53**)، إذ قد لا تكون دلالة الألفاظ المتداولة في الخطاب العلمي مشتركة بين جميع الفاعلين ضمن المجتمع العلمي، فيكون ذلك التدقيق من طرف كل باحث ضروريا لكي يتسنى للقارئ إدراك المعنى المقصود ضمن إنتاج علمي معين. ويختم عرضه متسائلا: "من المدهش القول إن العلم يستخدم لغة واضحة بينما يظهر من الخارج أنه شيء غامض ومعقد جدا"(**أنجرس، موريس (2004)، ص 53**).

إن السبب في نظرنا يكمن في أن العلم يستخدم لغة خاصة به متميزة، ولا يزول هذا الغموض إلا بمداومة المطالعة العلمية والتدريب والتعود على قراءة وتفكيك واستخدام هذه اللغة المتميزة، فالذي يجهل قوانين لعبة كرة القدم سوف تبدوا له قرارات الحكم غامضة وعشوائية.

وليس على عالم الاجتماع النزول بمفرده إلى مستوى الفهم والاستيعاب العامي، كما أن العامة ليس بمقدورهم الصعود إلى مستوى تعقيد الخطاب العلمي، ولهذا فإنه لا مناص من تلاقي الطرفين عند حدود لا تميع المعرفة العلمية ولا تحرم المجتمع من التثقف والاستفادة من التنوير العلمي.

إن إدراك ما يميز بين لغة الأدب ولغة العلم يتطلب معرفة خصوصية استخدامات ووظائف كل منهما، إذ بينما يسعى العلم إلى الإقناع من خلال الوضوح فإن الشعر يسعى للإمتاع بإيحاءاته ومحسناته البديعية، فبينما تخاطب لغة العلم العقل والمنطق فإن لغة الأدب والشعر تخاطب القلوب والمشاعر.

## ثالثا: عقبات التفكير السوسيولوجي:

يقول (غاستون باشلار): "حينما نبحث عن الشروط النفسانية لتقدم العلم، سرعان ما نتوصل إلى هذا الاقتناع، بأنه ينبغي طرح مشكلة المعرفة العلمية من زاوية العقبات"(**باشلار، غاستون (1982)، ص 13**). يمكن تعريف هذه العقبات بأنها مجموع الصعوبات المعرفية والنفسية والاجتماعية التي تمنع أو تعرقل أو تحرّف كلا من ظهور وتطور

ومسار المعرفة العلمية لدى شخص أو فئة اجتماعية أو مجتمع ما في فترة معينة من تاريخه. وهي بذلك تشكل تحديا ذاتيا وموضوعيا أمام العلماء، بحيث تشرط حجم ونوعية ووتيرة إنتاجهم المعرفي.

هذه العقبات مشتركة بين علوم الإنسان والمجتمع وعلوم المادة والطبيعة، وهي تنظم فيما بينها علاقة تفاعل وتكامل، بحيث لا يمكن تحليل وتفسير تأثير إحدى هذه العقبات بمعزل عن مدى وجود تأثير مضاعف للعقبات الأخرى من عدمه. ويمكن ملاحظة تداول هذه العقبات على مسرح تاريخ المعرفة العلمية وعبر مختلف المجتمعات والحضارات الإنسانية، أو على الأقل أولوية وقوة تأثير بعضها مقارنة بالبعض الآخر. وسوف نركز فيما يلي على مجال العلوم الاجتماعية تحديدا، فهو المجال المعرفي الذي تعرض، وما يزال، إلى أشد أشكال التحدي وأعقدها أيضا.

## 1– الذاتية والتحيّز:

هو مفهوم مقابل ومضاد لمفهوم الموضوعية، ويتمثل في التدخل والتأثير المعرفي لمجموع التصورات والعواطف والميول والشخصية، النابعة من الانتماء والتنشئة الاجتماعيين والخبرات الحياتية للباحث خلال مسار عملية التفكير والبحث والكتابة العلمية. بما في ذلك تأثير الأفكار العامية والأحكام المسبقة والقيمية، التي يحملها الباحث باعتباره فردا من المجتمع حيال مجمل القضايا الاجتماعية على مقاربته وتحليله لموضوع البحث. خاصة حينما يكون هذا الموضوع شديد ومن الحساسية طبيعة أيديولوجية أو قيمية. حيث يؤدي ذلك إلى وقوع الباحث في فخ الإسقاط اللّاواعي لذاتيته على موضوع البحث فتتشوه لديه رؤية الحقيقة الموضوعية.

فالذاتية تعكس وتصف المنظر الذي تطل عليه نافذة الغرفة وليس كل المدينة التي يقع فيها المنزل. إن على الباحث في العلوم الاجتماعية أن يسعى إلى تقليص تدخل ذاتيته بقدر المستطاع وتغليب الموضوعية والحياد والتجرد، وما لا يدرك كله لا يترك جله. وقد عقد العلامة ابن خلدون فصلا في مقدمته، عنونه: "العلماء من بين البشر أبعد الناس عن السياسة ومذاهبها"(**ابن خلدون، عبد الرحمن (بدون تاريخ)، ص 618**).

## 2– الانحياز والتعصب:

يمكن أن نعرفه بأنه الاستمرار في التمسك والدفاع عن الرأي أو الموقف الشخصي، في مسألة معينة أو ضمن إطار نقاش علمي، بعد أن يتبين للمعني ويتأكد له بطلانه. كما يطلق التعصب على حالة أو سمة الانغلاق على الفكر الذاتي أو المرجعي ورفض أي مراجعة أو نقد خارجي أو ذاتي، بحيث تتحول الأفكار المتبناة إلى شبه صنم مقدس غير قابلة للتشكيك. وهنا نجد أنفسنا أمام باحث متعصب يحول أفكاره إلى جزئ من شخصيته فلا يدرك انتقادها إلا باعتباره انتقاصا منه شخصيا. إن التعصب يحرم الباحث وفكره من التجديد والتصحيح، ويؤدي

إلى سيادة مرض الجدل العقيم خلال النقاشات العلمية بحيث يسعى الجميع إلى إثبات صحة الفكرة الشخصية بكل الطرق والأساليب دون اكتراث للمقصد العلمي الأهم والأوحد المتمثل في الوصول إلى الحقيقة. وهو ما تتكرر معاينته في الملتقيات العلمية حول قضايا الأسرة مثلا في جامعاتنا، حيث يخرج كل الأساتذة المشاركين بنفس القناعات التي دخلوا بها ويدخلون بها دوما. حتى أن هذا التعصب لم يعد مخفيا أو مخففا، وكأنه صار طبيعيا ولا يثير أدنى انتباه.

## 3– الأحكام القيمية والأفكار المسبقة والملاحظة الأولية:

يقول (جورج جورفيتش): "للوهلة الأولى تبدو المعرفة، من بين الأعمال الحضارية كلها، هي الأكثر انقطاعا عن الواقع الاجتماعي"(**غورفيتش، جورج (2008)**، ). غير أن الأحكام المسبقة كجزء من المعرفة العامية، هي إحدى أبرز عقبات التفكير العلمي، وهي تتمثل في مجموع التصورات والأحكام القيمية والمعيارية التي يحملها الباحث حول الظواهر الاجتماعية. خطورتها تكمن في كونها ذاتية ومتحيزة وغير علمية وغالبا ما قد تكون خاطئة، بل هي مضللة حينما تتدخل في مسار تفكير الباحث بدون وعيه. إن المعرفة العلمية تتخذ موقف قطيعة ويقظة لا تواصل مع الأحكام المسبقة، لتناقض ببنيتهما المعرفية **(Bourdieu, Pierre (1993) , p27-33)**، غير أن تلك الأحكام الاجتماعية المتفشية قد تكون موضوعا للمعرفة العلمية ومحلا للتساؤل. ويضاف إلى هذه العقبات ما يمكن تسميته بوهم الشفافية، الناتج عن الملاحظة الأولية، فبتعبير (باشلار) فإن "معرفة الواقع هي نور يعكس دائما ظلاله في مكان ما"(**باشلار، غاستون (1982)، ص 13**).

## 4– تأثير الخطاب الأيديولوجي– السياسي والإعلامي:

إن توجيه التفكير والرأي العام حيال ما يجري فعلا في الواقع الاجتماعي، المحلي والعالمي، هو الوظيفة الكامنة الأبرز لوسائل الإعلام في العصر الحالي. وقد تكفلت الدعاية المغرضة والتضليل الإعلامي الممنهج يلعب دور الأساطير والخرافات التي استحكمت على العقل البشري في الماضي وعرقلة بروز ونمو المعرفة العلمية. ذلك لأن "العلم يتعارض، في حاجته إلى الكمال كما في المبدأ، تعارضا تاما مع الرأي العام"(**باشلار، غاستون (1982)، ص 13**). وليس العوام وحدهم المعرضون إلى مخاطر هذا التضليل، بل إن الطلبة والباحثين معرضون أيضا بل ومستهدفون بدرجة أولى لكن من خلال أساليب أكثر دهاء وخفاء في آن واحد، خاصة في مجال العلوم الاجتماعية.

وبالنظر إلى ظاهرة الإدمان العام على الشاشات ومتابعة مواقع التواصل الاجتماعي، التي تفيض بالبرامج والمحتويات ذات الصلة بقضايا الأسرة، والمفتوحة على العالم بأسره بمختلف ثقافاته وأيديولوجياته المتنوعة والمتناقضة، فإن هذا التضليل تتوفر له كل شروط تحقيق أهدافه، خاصة بالنظر إلى السيطرة المعولمة على كبرى المؤسسات

الإعلامية والانترنت، كما أن الفطنة واليقظة حيال هذه المخاطر تتطلب أيضا تصفية الرواسب الفكرية والمعرفية التي تراكمت خلال المراحل العمرية السابقة. ولعل هذا التأثير العميق لوسائل الإعلام هو ما جعل (بيار بورديو) يعتبر الرأي العام بمثابة بديل (الإله) على مستوى إضفاء القداسة على الايدولوجيا الرسمية، حيث كتب مفندا وهم وجود الرأي العام، وقائلا بأن هذا الرأي العام المفبرك من خلال عمليات سبر الآراء المغلوطة جعل عبارة (قال الله) تترك مكانها ل (قال الرأي العام) **(Pierre Bourdieu (1984) ,p p222-235)** . وهو نفس العمل النقدي الذي خاضه الفيلسوف وعالم اللسانيات (نعوم تشومسكي) ضد جهاز الدعاية والتضليل الإعلامي في العالم.

## 5– ضعف التكوين العلمي:

وهو يشمل جانبين متكاملين، هما الجانب المعرفي والنظري والجانب الإبستيمولوجي والمنهجي. ولا يخفى أن تكوين علماء الاجتماع يعرف وضعية متأزمة منذ عقود، حيث تتضافر عديد العوامل النفسية والبيداغوجية والمهنية والسياسية لجعل هذا التكوين يتم في حدوده الدنيا ويفتقد تدريجيا كل دوافعه وآفاقه، وقد تحولت هذه الشعبة في الجامعات الجزائرية إلى اختيار منبوذ من طرف الأغلبية الساحقة من الطلبة، ما انعكس على دافعية الأساتذة سواء بالنسبة لوتيرة التدريس أو الإنتاج العلمي وممارسة البحث.

وهو ما نجد أثره السيء على مستوى الدراسات الأكاديمية، بما في ذلك المقالات المنشورة في المجلات العلمية، من حيث رداءة وسطحية المراجع والدراسات السابقة المعتمدة، التي تتسم بدورها بالانفصام حيال الإرث السوسيولوجي، أي الروّاد والنظريات والدراسات المؤسسة في علم الاجتماع، التي عادة ما تكون مفعمة بمبادئ ومنطق التحليل السوسيولوجي المعمّق ونظريات ومقاربات علم اجتماع وجهازه المفاهيمي الدقيق.

## 6– فقدان القاعدة العلمية (ضعف الإمكانيات البحثية):

إن البحث العلمي أو إنتاج المعرفة العلمية يخضع في الغالب إلى التمويل المباشر أو غير المباشر للخزينة العمومية (**لارامي، ألان (2009)، ص36**)، كما يعتمد أيضا على التمويل الذي يقدمه القطاع الخاص، لكن حظ البحوث الاجتماعية من كل هذا التمويل ضئيل مقارنة بالعلوم الدقيقة والتقنية. لكن هذه المشكلة تزداد تعقيدا حين تحظى وجهة نظر معينة بالتمويل والرعاية على حساب وجهات النظر الأخرى، بحيث يتدخل العامل المادي في تحديد كثافة النشاط العلمي الداعم لتيار سياسي وأيديولوجي معين.

إن افتقاد التغطية والسند المادي يعيق بدون شك وتيرة البحث العلمي وانخراط العلماء ضمنه وقدرتهم على التفرغ الكلي بفضل الارتياح المادي، لكن الحصول على التمويل أيضا قد يتحول إلى عقبة معرفية، حينما يضع العقول والمؤسسات البحثية تحت رقابة وتوجيه المنطق السياسي والاقتصادي الضيق. ويندرج ضمن ذلك عملية

التستر الممنهج على الإحصائيات الرسمية، مثل ما هو الحال بالنسبة لظاهرة المخدرات والهجرة غير الشرعية والبطالة والطلاق، التي يجد الباحث صعوبة شديدة للحصول عليها. كما يضاف إلى هذه العقبة حساسية وصعوبة تناول أغلبية القضايا الكبرى والحساسة في المجالات الدينية والسياسية والأمنية والإعلامية والأسرية والتربوية.

## - النتائج (الاستنتاج العام):

لقد أدركنا منذ كتاب جورج غورفيتش (les cadres sociaux de la connaissance) أن التفكير مشروط حتما بعوامل وسياق اجتماعي وثقافي وسياسي ومعرفي. فذاتية وانحياز الباحث هي إحدى أخفى وأخطر العقبات التي تحرّف مسار التفكير والبحث العلمي، ذلك المسار الذي يفترض أن يقود الباحث إلى الحقيقة الموضوعية، باعتباره مرآة تعكس طبيعة وخصائص موضوع البحث، وليس شخصية الباحث. ذلك أنه من أجل أن تكون المعرفة التي ينتجها الباحث في الحقل العلمي معرفة علمية، فلابد أن تخضع عملية إنتاجها لشروط انتاج المعرفة العلمية، والعقل العلمي هو وحده الذي يمكنه أن ينتج هذه المعرفة العلمية. وما ذلك العقل سوى نتاج عملية تكوينه العلمي، الذي ينبغي أن يكون قد استهدف، بالإضافة إلى أخلاقيات ومنهجية البحث العلمي، غرس الروح العلمية، وبخاصة مبدأ الموضوعية.

يقول (ماكس بيروتز): "لقد غير العلماء طريقة حياتنا، تغييرا يفوق في قوته ما أحدثه فيها نجوم التلفزيون ورجالات الدولة والجنرالات من تغيرات"(**بيروتز، ماكس (1999)، ص09**). لكن العلم سلاح ذو حدين فعلا، فهو محايد بالنسبة لاستخداماتنا لحصائل ممارساتنا من معارف حول المادة والطبيعة، وخاصة حول الإنسان والمجتمع. إذ بينما يتيح اكتشاف القوانين التي تحكم الظواهر فإنه لا يملي على الإنسان نوعية توظيفها واستغلالها ... فالطاقة الذرية مثلا يمكن أن تنقذ الأرواح مثلما يمكن أن تحصدها، والتحليل النفسي يمكنه أن يعالج المرضى كما يمكنه أن يحطم الشخصية، ودراسة ثقافات الشعوب والبنى الاجتماعية، يمكن أن تعزز استقرار وتنمية المجتمع كما يمكن أيضا أن تستغل لإثارة التوتر والتفكك وتوليد الظواهر المرضية وإثارة النزاعات الإيديولوجية والطبقية والطائفية. فليس كل العلماء نزهاء، بضمائر إنسانية سوية وحية، فكثيرون منهم، وفيهم العباقرة الأفذاذ في شتى حقول المعرفة، لا يتوانون عن توجيه اهتمامات واستخدامات البحث العلمي نحو التضليل والاستغلال والسيطرة على الشعوب ونشر الفساد المادي والمعنوي وتحقيق الثراء اللامتناهي على حساب التوازن البيئي والقيم الأخلاقية ومستقبل الإنسانية جمعاء.

من الممكن استخدام المعرفة العلمية باتجاه الخير والشر على حد سواء، ولهذا فإن العلماء لا ينبغي أن

ينتهجوا سياسة النعامة حيال نوعية المشاريع والتطبيقات التي توجه إليها اختياراتهم البحثية أو ترسم في إطارها السياسة البحثية ككل، فهم يتحملون قسطا كبيرا من المسؤولية حينما يعتقدون أن مهمتهم تنحصر وتنتهي عند حدود المهام العلمية الضيقة. وينبغي على كل حال أن يملك العلماء الضمير الذي يبقي إنسانيتهم على قيد الحياة وهم في المختبرات أو أمام الوثائق التاريخية، وهذه الميزة تزيد من تعقيد مهمة الضمير في حقل البحث العلمي، خاصة ونحن نعيش اليوم عصرا يشرط فيه العلم حياة البشر كما لم يشرطها من قبل. الأكيد أن الفيلسوف (فرانسوا رابليه)، الذي أتقن العربية ونهل بدون شك من روحانية الإسلام في الأندلس، قد أهمّته نفس هذه المخاوف حين قال كلمته الشهيرة: "العلم بدون ضمير ما هو إلا خراب للروح". إن هذه المخاطر تعزز ضرورة التركيز على تعليم وغرس أخلاقيات العلم وإبداع أساليب وإجراءات تضمن فرض الالتزام بها.

## – خاتمة:

إن العلوم الاجتماعية ينبغي أن تكون مقبرة الأفكار والأحكام المسبقة والذاتية، أي أن تكون إسقالة الوعي الاجتماعي من المعرفة العامية إلى المعرفة العلمية.

غير أننا كباحثين مشتغلين بالمسائل الاجتماعية نتعرض إلى خطر مضاعف لعقبات التفكير العلمي، فنحن ننتمي بعمق إلى المجتمع والدين والأسرة، وندين بثقافتنا وخبراتنا الأولية لبيئتنا وتجربتنا الاجتماعية، كما أن القضايا المثارة للنقاش حول المجتمع هي الأكثر ارتباطا بالدين والقيم والتقاليد، وهي بؤرة صراع أيديولوجي محمل بالذاتية والتعصب والاستقطاب.

إن التفكير والبحث السوسيولوجي هو نشاط احترافي، يتطلب تكوين فلسفي ونظري ومنهجي معمق وموسوعي، وتركيز ويقظة مستمرة، والتزام بالمعايير والضوابط المتفق عليها في المجتمع العلمي.

ينبغي أن يكون البحث والتفكير العلمي في مستوى تعقيد المجتمع ومجمل الظواهر الاجتماعية المتداخلة، والتي هي محمّلة بحجم كبير من المغالطات الناتجة عن الخبرات الذاتية والتعبئة الأيديولوجية.

إن العلاقة بين خصائص التفكير العلمي هي علاقة تكاملية في إطار تكوين وترقية الروح العلمية لدى الباحث بوجه خاص، وفي غياب هذه الروح تطفو إلى السطح عديد الظواهر المرضية في المجال الثقافي والعلمي، فالعلماء الفاقدين لهذه الروح يتحولون بالضرورة إلى نماذج سيئة مشوهة لنبالة وتميز العلم ومؤسساته، تغرق الجمهور في وهم من الخطاب المنمق، المقنع بقناع أكاديمي، لا يحمل من العلمية سوى الشكل. هذه الآفة هي جزء من أزمة العلوم الاجتماعية في مجتمعنا، كما هو الحال في كل المجتمعات التي تعاني من التخلف بالمدلول الشامل.

## – اقتراحات عملية:

1. يتطلب هذا الوضع العودة إلى الأسس الأولية للتكوين الإبستيمولوجي والمنهجي للطلبة والباحثين في سوسيولوجيا الأسرة، ولعل أول ما يميز العلماء هو القطيعة واليقظة المعرفية حيال المعرفة العامية وكذا الموضوعية والتجرد والروح العلمية.
2. ينبغي تعزيز التكوين النظري والمنهجي بما يعمق الشخصية والروح العلمية لدى طلبة علم الاجتماع بصفة عامة، فلا يعقل أن يخوض في مجال معقد جدا عقل غير مكتمل وفاقد لهزة القلب وقوة التفكير العلمي معا. ويتم هذا التعزيز بمراجعة برامج وطرق التكوين، خاصة بالنسبة للنظريات والدراسات المؤسسة والرواد وإبستيمولوجيا وأخلاقيات ومناهج وتقنيات البحث السوسيولوجي. لكن ذلك ينبغي أن يسبقه إعادة النظر في معايير ومنطق التوجيه الجامعي لمختلف التخصصات.
3. من أجل مقاربة سوسيولوجية، ناجعة وفعالة، ينبغي التوفيق بين الروح العلمية ومنطق التفكير العقلاني، من خلال توظيف النظريات والمفاهيم السوسيولوجية المتخصصة وفق مقاربة (علم الاجتماع الكلي)، ومن خلال التجسير بين العلوم الاجتماعية، وكذا الالتزام بالصرامة المنهجية والخطاب العلمي، مع استصحاب الضمير الأخلاقي وأخلاقيات البحث العلمي ومراعاة المسؤولية الاجتماعية.
4. بالنسبة لقضايا المجتمع الأكثر حساسية، فإن المهمة الصعبة والثقيلة التي يتحملها علماء الاجتماع، تتمثل في السعي إلى تحقيق توليفة جد معقدة، أي بين الحياد والموضوعية والصرامة المنهجية، من جهة، والضمير الأخلاقي والمسؤولية الاجتماعية، من جهة ثانية.

وعلى كل حال فإن تحطيم ذرة (Atome) أهون بكثير من تحطيم ذهنية (Mentalité)، حسب تعبير (آلبارت أنشتاين)، ولذلك فإن تغيير الذهنيات والممارسات السلبية في مجال الدراسات السوسيولوجية في مختلف الجامعات في العالم، بما فيها الجزائرية، يحتاج إلى وقت قد يضاهي الوقت الذي استغرقه تشكلها عبر الزمن.

---

## قائمة المراجع:

1. إبن خلدون، عبد الرحمن، (بدون سنة). **مقدمة ابن خلدون**، بيروت: شركة دار الأرقم للطباعة والنشر والتوزيع.
2. أنجرس، موريس،(2004). **منهجية البحث العلمي في العلوم الانسانية**، ترجمة/ صحراوي بوزيد وآخرون، الجزائر: دار القصبة.
3. باشلار، غاستون، (1982). **تكوين العقل العلمي**، ترجمة/ خليل أحمد خليل، بيروت: المؤسسة الجامعية للدراسات

والنشر والتوزيع ط2.

4. بيروتز، ماكس (1999). **ضرورة العلم**، ترجمة/ وائل أتاسي وآخرون، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
5. عبد الله، محمد عبد الرحمن (2006). **النظرية في علم الاجتماع**، مصر: دار المعرفة الجامعية.
6. زكرياء، فؤاد (1978). **التفكير العلمي**، الكويت: المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب.
7. لارامي ألان، فالي برنار (2009). **البحث في الاتصال**، ترجمة/ سفاري ميلود وآخرون، الجزائر: مخبر علم اجتماع الاتصال بجامعة قسنطينة، ط2.
8. غورفيتش، جورج (2008). **الأطر الاجتماعية للمعرفة**، ترجمة/ خليل أحمد خليل، لبنان: المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع، ط3.

**9.** Bourdieu, Pierre, Chamboredon, J-C, Passeron, J-C (1973). **Le Métier de Sociologue**, Paris : Mouton, deuxième édition.

**10.** Gautier, Benoît, (1984). **Recherche sociale de la problématique à la collecte des données**, Canada : presse de l'université du Québec.

**11.** Morin, Edgar (2005). **Introduction a la pensée complexe**, Paris : Editions du Seuil.